

بائت الفول

أبي.. كلاوي..» وردد عبد الحميد نداءه مرات ومرات.. ولكن الزبائن قليلون، لقد مضى عليه يبيع الفول النابت عشر سنوات، وكانت الحال جيدة، ولكن الوضع هذه السنة يسير من سيء إلى أسوأ.

فقد كان من عادته أن يستيقظ قبل أذان الفجر، فيوقد النار تحت حلة الفول الكبيرة المستقرة في وسط عربة خشبية، ثم يذهب إلى المسجد، فيصلي الفجر، ويجلس يذكر الله حتى تشرق الشمس، فيصلي الضحى، ثم يعود إلى بيته، ويكون الفول قد نضج، فينطلق بعربته بين الشوارع والأزقة والحارات وهو ينادي على الفول.

«استوى اللوز، قرب على الطيب، نابت نبت، استوى الفول يا كانت عربة الفول عربة مميزة تدفع إلى الإعجاب بذوق عبد الحميد وحرصه على النظافة، فهي عربة خشبية مدهونة بألوان عديدة متناسقة، وقد غطتها خيمة حمراء تمنع عن الزبائن أشعة الشمس وقطرات المطر، وقد نضدت عليها صحنون مختلفة، منها ما هو مسطح يوضع فيه الفول، ومنها ما هو عميق يصب فيه مرق الفول، وعلى طرف العربة يجثم خزان مائي صغير له صنبور لغسل الصحنون والأطباق، يتدلى تحته سطل يتلقى ماء الغسيل. وبجانب الصحنون قامت ممالح صغيرة ملئت بالملح والكمون، وزجاجات من عصير الليمون. وتحت حلة الفول كان هناك موقد كبير يبقي الفول ساخناً.

وعاد عبد الحميد يصيح: استوى اللوز.. كلاوي.. قرب على الطيب.. قرب على الساخن. ووقف أمامه شاب، ووضع له عبد الحميد بعض الفول في صحن وقدمه إليه، وقال: بالصحة والهناء. وتذكر عبد الحميد كيف كان الزبائن يتهافون على عربته فلا يكاد يهدأ، يقدم لهذا صحن فول، ولذلك كأس مرق فول، فإذا حان وقت صلاة العصر يكون الفول قد نفذ، فيعود إلى داره مسروراً. أما الآن فقد مضى يومان، ولم يبع ما في حلته من الفول، إنه يعلم يقيناً أن ما يصنعه من الفول النابت طيب ولذيذ، وأنه يستهوي من يذوقه ويدفعه أن يستريد منه، وأن طريقته في صنع الفول ما تغيرت.. فما الذي تغير حتى بارت تجارته وكسدت بضاعته؟! وخطر في باله لعل السبب هو الضائقة الاقتصادية التي تجتاح المنطقة.. أو لعلها تلك المطاعم الحديثة بأطعمتها المستحدثة التي انتشرت في أرجاء المدينة فما عادت عربة الفول تجذب الناس إليها.

وقطع شاب على عبد الحميد ذكرياته وسأله: يمكن أن تضع لي صحناً آخر ففولك طيب حقيقة؟! وسارع



بقلم: محمد سعيد المولوي
سورية

عبد الحميد يقول وهو يمسك الصحن بيده ويكشف حلة الفول: ألف صحة وهناك، الحقيقة أنك ذواق، وأنا لا أمدح نفسي، ولكن هذا الفول ليس له نظير في هذا البلد، ووضع الصحن أمامه، ثم صب له بعض مرق الفول، ورش عليه ملحاً، وحمض الليمون، وقدمه إليه.

بقي عبد الحميد سحابة النهار ينتقل من مكان إلى مكان حتى أنهكه التعب، وأجهد الصياح دون أن يتمكن من بيع ما لديه من الفول.. وعاد إلى البيت يطلب الراحة، وقد تملكه بعض الضيق.. وتلقته زوجته بالترحاب وهي تميل يمنة ويسرة من أثر حملها.. ورد عبد الحميد التحية، وسأل زوجته عن حالها وحملها فطمأنته، ولكنه ظل يشعر بالضيق.

حين أوى عبد الحميد إلى فراشه أحس أن النوم بعيد عنه، وأن الأرق يسيطر عليه، وراحت الأفكار المختلفة تروح وتغدو على دماغه.. وعادت به الذكرى إلى ذلك اليوم الأغبر، فقد كان يحيا في كنف والده وكان طالباً في الصف الأول الثانوي، وعاد من المدرسة ليجد الوجود والحزن يخيم على البيت، فقد عاد أبوه من العمل متعباً، ولم تمض ساعة حتى أسلم الروح.

وفي جو من الحزن والأسى وجد نفسه يحمل عبء

الأسرة بكاملها، فقد كان عليه أن يحل محل أبيه، وأن يترك المدرسة. ولم يشأ عبد الحميد أن يبحث عن وظيفة فقد كان من طبيعه يكره أن يأمره أحد أو يملئ عليه رأيه، فقرر أن يخلف أباه في عمله وأن يبيع الفول كما كان يصنع أبوه.

وأحس عبد الحميد بالحزن يغمره لذكرى وفاة والده، وأحس بالدموع تجول في عينيه فمد يده ومسح دموعه وراح يتمتم: رحمك الله يا أبي! فقد كنت تحمل حملاً ثقيلاً ما استطعت أنا أن أحمله.

وتتابعت الذكريات كشريط مصور سريع.. فها هو ذا يبدأ العمل ويحس بالحرج في البداية حتى كسب خبرة جيدة، وصارت له زبائن كثيرة، وأصبح عمله موفقاً ميسوراً، ووسع الله عليه في الرزق، فأنث لنفسه غرفة في بيت أهله، وتزوج، وعاش سعيداً، ورزقه الله ولداً سر قلبه، وتعلق به فؤاده، وتوفيت أمه فأحس لفقدائها لوعة وناراً لا يزال لهيبها يتأجج في قلبه.

كانت الأيام تمضي رتيبة، وكان دخل عبد الحميد يزداد يوماً بعد يوم، وبدأت له آمال شتى فاصلح بناء البيت واشترى أثاثاً جديداً، ووضع هدفاً لنفسه أن يدخر ما يجعله قادراً على شراء متجر والخلاص من السعي وراء الرزق طوال النهار مشياً في الشوارع والأزقة.

وطافت به الذكريات ترسم له صورته وهو يعود كل يوم إلى البيت فيخرج ما في جيوبه من مال يحصيه ويرى مقدار الزيادة فيه، وعاد إلى ذهنه تساؤه الذي لا يزال يعود فترة بعد أخرى، وهو كيف يتشكل المجتمع؟ وما هي علاقات الأفراد بعضهم ببعض؟ وكيف يتوزع الناس في أعمال شتى يكون لكل واحد منهم رزق محدد؟ فما هو السر في كون هذا غنياً وكون ذاك فقيراً، وهل قضية الغنى والفقر ترتبط بالجهد الذي يبذله الإنسان وبالقدرة الذاتية؟! فالواقع يدل على أن الجهد له أثر في الرزق ولكن الرزق ليس مكافئاً للجهد.. ولو كانت القضية بالجهد والقوة لأكلت النسور وحرمت العصافير!!

تنبه عبد الحميد أنه قد سرح مع ذكرياته، وقال في نفسه: لماذا أتعب نفسي في شيء لا يخضع لي، فالأرزاق بيد الله، وعلى الإنسان أن يسعى في طلب الرزق وأن يعلق قلبه بالله تعالى، وليس له أن يتعب نفسه بالسؤال: لماذا هذا غني وذاك فقير؟ فإدراك الحكمة في هذا الأمر ليس متيسراً دائماً، وخير من مناقشة هذه الأمور التسليم لله تعالى وبذل الجهد في طلب الرزق دون أن يكون القلب معلقاً بما في أيدي

الناس.

كان حلم عبد الحميد بامتلاك متجر وهجر عربية الفول والسير في الشوارع والأزقة يكبر يوماً بعد يوم، وكانت بوادر تحقيق هذا الحلم تتضح فترة بعد أخرى، وكلما استطاع أن يدخر مزيداً من المال، حتى جاء اليوم الذي اقتنع فيه أن ما معه قد أصبح كافياً، ولم يعد له إلا أن يطوف على المكاتب العقارية لعله يجد المتجر الذي يريد.

وجاء يوم لن ينساه أبداً، فقد خرج من البيت لبيع الفول، وذهبت زوجته لزيارة أهلها والاطمئنان عنهم، وقضى سحابة نهاره في تجوال دائم وتعب مفرط، وعاد مساء منهكاً ليجد الكارثة التي هدمت أحلامه وكدرت حياته وأذهبت البسمة عن فمه، وأرسلت الدموع في عينيه.

كانت زوجته جالسة تبكي، والحزن يملأ وجهها، وأحس عبد الحميد أن أمراً سيئاً قد حصل، ونظر في وجه ابنه فوجده ساهماً، وتفحص وجه زوجته فلم يجد إلا التجهم والبكاء، وسأل زوجته ماذا هناك، وماذا جرى؟؟ ولم يكن جواب زوجته إلا نحيباً ونشيجاً ودموعاً تسيل على الخدين.. وزاد خوفه واقترب من زوجته فأمسك كتفها وصاح: ماذا جرى؟ قولي لقد أرعبتني. وزاد بكاء الزوجة فكاد يخرج عن جلده. فقال محتداً: سلمى ماذا هنالك؟! قولي.. هل مات أحد؟ وأخيراً تكلمت بصوت منقطع يرتفع حيناً ويخفت حيناً آخر، والدموع تسيل على خديها، وهي تمسحها بين الفترة والأخرى فقالت: لقد عدت من بيت أهلي لأجد باب الدار مفتوحاً وظننت أنك عدت باكراً، وحين دخلت البيت وجدت الأثاث في حالة من الفوضى عجيبة، فالفرش متناثرة، والكراسي مقلوبة؛ والملابس هنا وهناك، والمقاعد قد جمعت في مكان واحد.. وأوجست خيفة، وفجأة قفز في وجهي رجل غريب خرج من غرفة النوم فكدت يغمي علي وأذهلتنني المفاجأة واستطاع الفرار. وحين عادت إلي نفسي اكتشفت أن الرجل قد سرق كل ما ادخرناه.

وسقط عبد الحميد على الكرسي متهاكاً وقال: هل عرفته؟ قالت لقد رأيت وجهه، ولكني لم أكن قد رأيته من قبل. وقد صحت علي الجيران، فحضرُوا وقدمت الشرطة، وأجرت تحقيقاً وأخذت طبعات البصمات، وكانوا يريدونك وما عرفت أين أجداك.. وهم الآن بانتظارك في المخفر.

تملكت عبد الحميد مشاعر متعددة من الغضب والحزن واليأس والحنق والرغبة في الانتقام..

وتمنى لو أنه كان؛ إذن للحن اللص درساً لن ينساه في حياته.. وتداعى إلى ذهنه الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ والحديث الشريف: «الصبر عند الصدمة الأولى» وسمعت سلمى زوجها يردد: «إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وظل عبدالحميد بضع دقائق وهو على هذه الحال.. ثم التفت إلى زوجته وقال: اسمعي يا امرأة! أنا الذي جئت بالمال وليس هو الذي جاء بي، والمؤمن مبتلى وعليه الصبر، وإن كان لنا في هذا المال نصيب فسيعود، وأملئ بالله أنه سيرده علي لأنه يعلم أنه كسب حلال لم يخالطه قرش حرام، فدعي البكاء وقومي رتبي البيت والأثاث ريثما أذهب إلى المخفر وأعود.

وخرج عبدالحميد من البيت وهو يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون. فكان يحس في داخله أنه بحاجة إلى أن يبكي: أن يصرخ.. أن يقفز.. أن يصيح.. أن يجمع الناس وأن يقول لهم: إن أحلامه قد سُرقت، وعشر سنوات من عمره قد أهدرت، لكنه عاد فنذكر الله وقدره، فمضى يذكر الله تعالى، ثم رفع رأسه وقال: اللهم أنت وهبت ورزقت، وأنت أخذت، اللهم إني أسالك بكرمك أن تصبرني وأن تعيد علي مالي.

غدا عبدالحميد في اليوم التالي يسرح بعربة الفول. وكان كلما توقف في مكان قفزت إلى مخيلته صورة أمواله، وهو يعدها ويحسبها، حتى صارت صالحة لشراء المتجر. وتذكر تلك الأيام التي قضاه تحت أشعة الشمس أو قطرات المطر وهو ينادي: نابت نبت.. كلاوي.. فتثور الأحران في نفسه، ويحس بضيق شديد، وتظلم الدنيا في عينيه، ولكنه يرجع إلى نفسه فيذكر الله، ويستغفره، ويتوجه بقلبه إلى الله يناجيه. مضت بضعة أيام وعبدالحميد يمر في كل يوم على مخفر الشرطة يستفسر عن اللص وهل قبض عليه.. دون أن يجد جواباً شافياً حتى تملكه الملل.. فالتفت إلى عمله، وقد صمم أن يعيد الكرة وأن يجمع بدلاً من المبلغ المسروق، ولكن كيف يكون ذلك؟ لقد جمع ذلك المال في عشر سنين، وكانت السوق مزدهرة، والآن الأسواق باردة.. وقال عبدالحميد: الله هو الرزاق، وأملئ في الله كبير، ولن يضيعني الله بفضله وكرمه.. وكم من مرة فرج الله كرباً لمكروب، والضيق الذي يحس به الآن سيفرجه الله بإذنه.. أليس هو الذي يرزق ثمن الطعام والشراب والكساء وما تحتاجه العائلة وأنه هو الذي سيرزق ثمن المتجر؟! ثم ماذا عليه، فهو بحمد الله لا يحتاج أحداً ويقدم لعائلته كل ما تحتاجه. والرسول

عليه الصلاة والسلام يقول: من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا».

وقفز إلى ذهنه صورة امرأته وهي حامل تميل يمنة ويسرة.. والولادة تحتاج إلى مصاريق ونفقات، فمن أين يأتي بها؟! وإن احتاجت أن تدخل المستشفى فمن أين له المال الذي تحتاجه؟! وضاعت نفسه فهرب من ذلك إلى تردد: إن مع العسر يسراً..

مضت أيام عديدة، وألم فقد المال يخف شيئاً فشيئاً في نفس عبدالحميد.. وازداد اهتمامه بعمله، فأصبح يخرج باكراً ويعود متأخراً. وجاء يوم شديد البرودة، تتساقط قطرات المطر فيه بغزارة واستبشر عبدالحميد خيراً، فالناس حين يشد البرد تفر إلى بائع الفول أو الشمندر تجد عنده الدفء، وهو لا ريب سيبيع اليوم بإذن الله حلة الفول كلها، وسيقبل عليه الناس، وسيعود إلى بيته غانماً مجبور الخاطر.

ودفع عريته أمامه وصاح: «استوى الفول.. نابت.. قرب على الطيب.. كلاوي» ولم يسر بضع دقائق حتى تحلق حوله بعض طلاب المدارس يشتررون منه.. وقال عبدالحميد: يا كريم، وأزاح غطاء حلة الفول، وراح يملأ الصحون، ويضعها أمام الأولاد مستبشراً وهو ينادي بسرور: كلاوي.. كلاوي.. قرب بردان على الطيب. وحين اقترب وقت الظهر اكتشف عبدالحميد أنه قد باع نصف الفول، فقرر أن يتجه إلى جانب دائرة الجوازات، فهناك عدد كبير من الناس يسعون إلى الحصول على جواز السفر وهم مضطرون إلى الانتظار أحياناً، وقد يغنمون فرصة الانتظار لتناول طبق من الفول.. فضلاً عن أن المصلين سيخرجون من الجامع فيغريهم الفول برائحته ودفئه، والعربة بنظافتها وتزيينها فتزداد مبيعاته.

ووصل عبدالحميد إلى المكان المقصود، والتف الناس حوله يستدفئون بحرارة الحلة والموقد، وبخار الماء يتصاعد ويتراقص ويتلاشى، وسارع عبدالحميد يصب في الأطباق والصحون الفول، ويلبي الطلبات، ويجمع المال.. وهو في غاية السعادة.

وفجأة وقفت إلى جانبه سيارة شحن متوسطة، ونزل منها بسرعة ستة من شرطة البلدية، فأحاطوا بالعربة وراحوا يجمعون الصحون والأطباق.. وصاح عبدالحميد: خير ماذا هنالك.. ونظر إليه أحد رجال الشرطة نظرة حقد وكراهية وقال: العربة مصادرة.. ألا تعلم أنه ممنوع الوقوف.. قال عبدالحميد: طول بالك، الله يرضى عليك.. والذي تريده يصير.. وسأمشي من

هنا. وقال الشرطي: ما حذرت فخرج الحمام ليس كدخوله، وأنت وقعت وما سمي عليك أحد.. وأمسك عبدالحميد بيد الشرطي والأطباق بيده، وقال: الله يسترك، لا تخرب بيتي، والله ما عدت أقف هنا.. اتركونا نسترزق الله.. عندنا عائلات يا عالم.. وغضب الشرطي وراح يضرب الأطباق بالأرض فتتكسر قطعاً.. وقال أحد الواقفين: حرام عليك يا رجل، لماذا تكسر له الصحون؟ ونهره الشرطي قائلاً: امش من هنا مالك علاقة.. وأطبق عبدالحميد على كفي الشرطي والأطباق وراح يشدها من يديه وسارع اثنان من الشرطة فأمسكا عبدالحميد من ساعديه وجراه بعيداً، وقد اجتمع الناس وهم يقولون: لا يا جماعة طولوا بالكم، وعمد بقية الشرطة إلى دلق ما تبقى من الفول على الأرض، ثم حملوا الحلة والعربة إلى السيارة، وركبوا معها، وانطلقت السيارة وعبدالحميد يركض وراءها وهو يصيح: الله يخرب بيتهم خربوا بيتي.. وقال أحد الواقفين: ما هذا الظلم؟ ورد عليه آخر: يا أخي الحق معهم فالعربة تعرقل السير.. ورد عليه الأول: ما هذا الكلام؟ هذه العربة تعرقل السير وهذه السيارات التي تراها أمامك وقد وقفت على اليمين واليسار رتلين وعلى الرصيف وبشكل معاكس والتي تدخل من الطريق الممنوع هذه كلها لا تعرقل السير.. صحيح مثلما قال المعري للأرنب: استضعفوك فوصفوك لو لا وصفوا قلب الأسد.. فهو لاء يظهر قوتهم وبطشهم على الفقير المسكين.

وبدأ الناس بالابتعاد، وأحدهم يقول: ما لنا علاقة نريد أن ننام في بيوتنا... وقال أحد المسنين: الله يعوض عليك يا ابني ويجبر خاطرك.. رح إلى بيتك واحتسب مصيبتك عند الله.

عاد عبدالحميد إلى البيت كسير القلب حزناً بانساً تسيطر عليه سحابة من اليأس، فما ادخره من مال قد سرق وواسطة رزقه ورزق عائلته أخذتها الشرطة، واستقبلته زوجته ورأت وجهه متعباً وجسمه متهاكاً فاصفر وجهها ودب فيها الرعب وراحت تسأله عن حاله وسبب حزنه، وسكت عبدالحميد، ودخل غرفته وارتمى على سريره، وقالت زوجته: ماذا حصل؟ قل لي: قال عبدالحميد: الله يخرب بيتهم خربوا بيتنا، صاحت زوجته بدعز: من هؤلاء وماذا جرى؟ قال عبدالحميد: هؤلاء الظلمة.. ماذا صنعت لهم، وحين أعادت زوجه عليه السؤال صاح بها بحدة: دعيني وحدي واخرجني من الغرفة.

تزاومت الصور والأفكار في ذهن عبدالحميد، وكان هناك سؤال لا يغادر رأسه. ماذا صنعت وماذا جنيت؟ وماذا يريد هؤلاء؟ أيسوؤهم أن أكسب رزقي بالعمل

الشريف، وأن يكون حلالاً؟ هل يؤذيهم أن يعمل الإنسان عملاً بناء مفيداً لنفسه وللمجتمع؟ هل يريدون منا أن نعمل لصوصاً أو محتالين؟، وهل يريدون منا أن نكون مجرمين أو تجار مخدرات ومهربات؟ هذا أمر غير معقول!! وأحس عبدالحميد بموجة عارمة من الحنق تجتاحه وتمنى لو أنه يستطيع أن يقف أمام هؤلاء ورؤسائهم فيؤنبهم ويقرعهم لما يفعلونه.. فلماذا لا يجعلون مكاناً خاصاً للباعة المتجولين كما هي الحال في كثير من بلدان العالم. وسأل عبدالحميد نفسه: من أين سيعيش؟ وكيف سيؤمن قوت عائلته؟ وماذا سيفعل إذا جاء زوجه المخاض؟ وهل يخرج غداً إلى الناس يطلب منهم أن يقرضوه المال لشراء عربة جديدة أم يسعى على المحلات يرجو أن يجد عملاً؟ وهل يطيق أن يعمل أجيراً لدى الآخرين يأمرونه ويطلبون منه أن يطيع وهو قد عاش حراً طوال عمره.

وأحس عبدالحميد أن رأسه يكاد ينفجر من كثرة التفكير فدرس رأسه في الفراش وألقى الوسادة فوقه وحاول أن يسترخي فغلبه النعاس ونام.

ورأى عبدالحميد في نومه أنه تصدى للشرطة، فاستخلص منهم عربة الفول بعد أن عنقهم وضربهم وطردهم وأن أحد رجال الشرط وجه مسدسه إلى رأس عبدالحميد وأطلق النار.

وأفاق عبدالحميد من نومه مذعوراً فحمد الله أنه كان في حلم، ونفت عن يساره، ودخلت عليه زوجته تقول: إن شرطياً بالباب يطلبه.. وتوجس عبدالحميد شراً، وكاد يختلط في ذهنه الحلم مع الحقيقة، فهل جاء الشرطة لاعتقاله ولم يكفهم ما صنعوه به. واتجه عبدالحميد نحو الباب وزوجه خلفه تريد أن تعلم سبب حضور الشرطة. وقف عبدالحميد أمام الشرطي وهو يقول: خير إن شاء الله ماذا تريدون أيضاً، وهل هناك مصيبة أكبر؟ وقال الشرطي: الأمر خير إن شاء الله، وقد جئتك ببشارة، وظن عبدالحميد أنهم قد قرروا أن يعيدوا إليه العربة، فأراد أن يتأكد فقال: وما هي البشارة؟ قال الشرطي: أبشر لقد قبضنا على اللص الذي سرق لك أموالك واسترجعناها لك وهم في المخفر ينتظرونك ليتموا التحقيق ويعيدوا إليك المال المسروق.

وصاح عبدالحميد: الله أكبر! الله أكبر! كم أنت كريم يا رب!

وفي الصباح أفاق عبدالحميد باكراً وليس ثيابه واتجه نحو الباب فصاحت به زوجته: إلى أين يا عبدالحميد؟ فأجاب بكل ثقة: إني ذاهب أبحت عن متجر أشتريه فقد مضى عهد العربة والتجوال في الطرقات.